

الحداثة والذكاء الاصطناعي: في نقد سوسيولوجي دولي لنزع الأدمية

أميرة أبو سمرة*

المُلخَص

يُطلُّ الذكاء الاصطناعي علينا اليوم بوصفه لحظة انتقالية فارقة في مسار البشرية تحمل نقلة نوعية غير مسبوقه من حيث نطاق التأثير وامتداداته في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. يعتمد البحث مقارنة سوسيولوجية دولية نقدية لتقدّم تحليلاً كيفياً للعلاقة الجدلية بين الحداثة والذكاء الاصطناعي ونزع الأدمية. وي طرح البحث تساؤلاً محورياً: هل يُعدُّ الذكاء الاصطناعي امتداداً للمنطق الحدائي بأدوات رقمية جديدة تُرسخ التفاوتات الدولية، وتُعمّق أنماط السيطرة، أم أنّه تحدٍ جذري لهذا المنطق بما يحمله من تهديد لأدمية الإنسان نفسه، وتقويضٍ لادعاءات الفاعل الحدائي القدرة على التحكّم الكامل في العالم من حوله؟

وتشير النتائج إلى أن الذكاء الاصطناعي -رغم ظهوره استمراراً لمشروع العقل الحدائي- يكشف هشاشة هذا المشروع؛ إذ لم يعد نزع الأدمية يقتصر على "الأخر" المستضعف، بل طال حتى "الذات" التي عدت نفسها معياراً للإنسانية، مما يبرز مفارقات جوهرية في منطق المشروع الحدائي. وبناء عليه، فإن البحث يدعو إلى ضرورة إعادة بناء خطاب قيمي عالمي يعيد الاعتبار إلى الإنسان بوصفه فاعلاً اجتماعياً أخلاقياً مسؤولاً.

الكلمات المفتاحية: الذكاء الاصطناعي، الحداثة، نزع الأدمية، مقارنة سوسيولوجية دولية، الخطاب القيمي.

* دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2014م، أستاذ العلاقات الدولية المساعد، قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة. البريد الإلكتروني: amiraabousamra@feps.edu.eg - amiraabousamra@feps.edu.eg
4509-6256

تم تسلّم البحث بتاريخ 2024/11/16م، وقبِل للنشر بتاريخ 2025/5/25م.

للاقتباس: أبو سمرة، أميرة (2026). "الحداثة والذكاء الاصطناعي: في نقد سوسيولوجي دولي لنزع الأدمية"، مجلة الفكر الإسلامي

المعاصر (إسلامية المعرفة سابقاً)، مجلد 32، العدد 111، 175-199. DOI: 10.35632/citj.v3i111.17269

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي © 2026

مُقدِّمة

تعيش البشرية في لحظتها الراهنة ما يُسمَّى الثورة الصناعية الرابعة؛ إذ شهد العالم أربع ثورات صناعية، هي: ثورة البخار والميكنة، ثمَّ ثورة الكهرباء والاتصال، ثمَّ الثورة الرقمية المُرتبطة بطفرة عولمية في الاتصال والمواصلات، ثمَّ الثورة المُمثَّلة في ظهور الذكاء الاصطناعي وإنترنت الأشياء والتكنولوجيا الحيوية. واعترافاً بما يحمله الذكاء الاصطناعي من إمكانيات استثنائية؛ فإنَّ بعض الأدبيات المعاصرة تتحدَّث عن ثورة صناعية خامسة تلوح في الأفق، وتُشارك فيها البشر أوَّل مرَّة في الحياة كيانات جديدة تُفكِّر بذكاء وتعقل، لكنَّها ليست بشرية (Sinkovec, 2021). والثابت أنَّ الذكاء الاصطناعي يُمثِّل ظاهرة تقنية معاصرة تَبني على ما سبقها من تطوُّر تكنولوجي وعلمي، لكنَّها -في الوقت نفسه- تُمثِّل نقلة نوعية غير مسبوقه من حيث نطاق التأثير وطبيعته وامتداداته إلى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

تنظر الدراسة إلى الذكاء الاصطناعي بوصفه حقيقة عالمية جديدة، ولحظة انتقالية كبرى في تاريخ البشرية جمعاء، وليس مُجرَّد تاريخ أفراد أو دول أو مجتمعات، وهي لحظة تشكَّلت فيها ملامح جديدة للعلاقة بين البشر بعضهم ببعض، وعلاقة البشر بالطبيعة من حولهم، مُتسائلاً عن شكل ديناميكيات القوَّة التي يستتبُّها الذكاء الاصطناعي والهياكل الاجتماعية العالمية التي يُعبر عنها، ويُؤسِّس لها.

وانطلاقاً من إطار نظري ناقد للحدائثة، يرى فيها مشروعاً إقصائياً واستعلائياً غريباً ينزع الآدمية عن بعض البشر، تطرح الدراسة سؤالاً عمياً إذا كان الذكاء الاصطناعي مُجرَّد امتداد للظاهرة الحدائثة، ولكنَّ بأدوات جديدة ضمن بنية اجتماعية دولية غير مُتكافئة، تُمكن الطرف الأقوى في المعادلة الاجتماعية الدولية من بسط مزيد من السيطرة والتحكُّم في مُقدِّرات الأضعف، أم أننا أمام تحدٍّ حقيقي للظاهرة الحدائثة؛ لِمَا يحمله رُبَّما الذكاء الاصطناعي من تهديد بانتزاع آدمية البشر؛ كلَّ البشر، وعلى نحوٍ يُمثِّل تحدياً لمقولة حدائثة أساسية افترضت تمكُّن العقل البشري من السيطرة

الكاملة على العالم من حوله. وبعبارة أُخرى، إذا كانت الحدائفة الغربية -بحسب اتجاهات نظرية نقدية عديدة- قد قامت على منطق إقصائي استعلائي، يضع الإنسان -أو بالأحرى الإنسان الغربي العقلاني- في مركز الكون، ويُقصي "الآخر" غير الحدائي من دائرة الكمال الإنساني؛ فإنَّ الذكاء الاصطناعي يعيد طرح تساؤلات كبرى عن مكانة الإنسان نفسه، ليس فقط من منظور السيطرة على "غيره"، وإنما من منظور التهديد الشامل الذي يطال جميع البشر بدرجات مُتفاوتة من نزع الأدمية وتجريد الذات من الفاعلية والخصوصية، ويفرض بدوره تحدّيات على المنطق الحدائي نفسه.

والحقيقة أنَّ الدراسة تقترب من الذكاء الاصطناعي اقتراباً سوسولوجياً دولياً ينظر إلى الذكاء الاصطناعي، بوصفه ظاهرة اجتماعية وثقافية مُشبعة بالمعاني السياسية والمعرفية، لا مجرد تطوُّر تقني محايد، وتراكم على مفاهيم ومقولات نظرية نقدية أساسية في دراسات الذكاء الاصطناعي عن التشيُّ والاستعمار الرقمي والتحيُّز المُشفر وإشكاليات الرقابة وتحرير الذكاء الاصطناعي من الاستعمار وغيرها؛ لتقدِّم تحليلاً كيفياً عن جدلية العلاقة بين الحدائفة والذكاء الاصطناعي ونزع الأدمية.

إطار نظري في نقد الحدائفة ونزع الأدمية

شهدت الحدائفة العديد من الانتقادات التي تبنتها بعض الاتجاهات النظرية النقدية في العلوم الاجتماعية على اختلاف فروعها (Harding, 2002)، مثل: نظرية ما بعد الاستعمار، ونظرية التحرُّر من الاستعمار، والنظرية البنائية النقدية، والنظرية النسوية النقدية، ونظرية ما بعد البنيوية. وتشارك هذه الاتجاهات النظرية في مقارنة سوسولوجية اجتماعية دولية تجتمع على نقد ما أفرزته الحدائفة في واقعنا الدولي من ثنائيات أساسية، سمّاها (Ramon Grosfoguel) المصنوفة الاستعمارية، مثل: ثنائية الغربي وغير الغربي، وثنائية المُتحمّض والهمجي، وثنائية الأبيض والأسود، وثنائية العلماني والديني، وثنائية الرجل والمرأة، وثنائية الغني والفقير. واللافت أنَّه لا تتساوى أطراف هذه الثنائيات؛ إذ يظهر الطرف الأوّل دائماً بوصفه طرفاً أقوى في المعادلة، فتتمحور علاقات القوّة

الاجتماعية بين الطرف الأوّل والطرف الثاني حول مصالح الأوّل منها واحتياجاته وأولوياته ورؤيته للعالم والمعرفة (Grosfoguel, 2010)، وعلى نحوٍ ينحاز -بطبيعة الحال- إلى مصالح الطرف الأقوى واحتياجاته وأولوياته ورؤيته، ويُفوّض مصالح الطرف الأضعف والأفقر والأقل ذكاءً.

وقد استخدم النقاد مفهوم "نزع الآدمية" (dehumanization) في الإشارة إلى هذه العلاقة الحدائية مع "الآخر"، وهي علاقة تقوم على "النظر إلى بعض البشر (أو التعامل معهم) على أساس أنهم ليسوا بشراً، أو على اعتبارهم غير مُكتملي الآدمية" (Bender, 2024)، ومن ثمّ لا يستحقّون التمتع بحقوق كاملة على نحوٍ يُبرّر عملية اضطهادهم أو تعذيبهم أو إبادتهم. وقد امتدّ هذا المفهوم عبر العديد من الحقول المعرفية، مثل: علم النفس الاجتماعي، والنظرية السياسية، وعلم الاجتماع؛ إذ يُستخدَم في تحليل مختلف أشكال العنف الهيكلية والتهميش والاستبعاد الأخلاقي، وقد استخدمته (Hannah Arendt) في وصف العلاقة بين الأنظمة الشمولية والمواطنين؛ إذ تُجرِّدهم هذه الأنظمة من الحقوق السياسية والحقوق المعنوية على نحوٍ يُفقدتهم إنسانيتهم (Arendt, 1951). أمّا (Frantz Fanon) فطرح الفكرة في سياق العلاقة بين المُستعمر والمُستعمر؛ إذ يُجرِّد الاستعمار ضحاياه من الآدمية عن طريق تصويرهم في صورة البشري الأدنى الذي لا تاريخ له ولا حضارة (Fanon, 2008).

ويرى النقاد -على تنوع تياراتهم النظرية- أنّ الحدائنة نزع -ولا تزال تنزع- الآدمية عن بعض البشر، ولم تكن الإبادة الجماعية في براري أمريكا اللاتينية ومحارق أوروبا وغزّة سوى شكل من أشكال نزع الآدمية، ولم تكن سرقة المُستعمر والرأسمالي لثروات هؤلاء البشر وأراضيهم، وتهميش العلمانية لعلومهم ومعارفهم، وقمع المرأة وممارسة العنف عليها، والتمييز العرقي والعنصرية داخل المجتمعات؛ لم يكن ذلك كلّهُ سوى تجلّيات مُمتدّة لهذه العلاقة الحدائية المُختلّة التي أعطت حياة بعض البشر وحقوقهم ومصالحهم الأولوية على حساب بعضهم الآخر. ولهذا قالت (Kronfeldner) إنّ نزع الآدمية هو الجانب المُظلم للإنسانية التي هي جوهر الحدائنة (Kronfeldner, 2021). وقد فسّر (Bauman) هذه المشاهد المُتكرّرة في الواقع الحدائي بأنّ الحدائنة التي أطلقت العنان للعقل البشري، كي يحسب المصلحة حسابات مادية محضّة من دون

الالتفات إلى أي اعتبارات أخلاقية قادته إلى أن يستعلي على غيره من البشر بما امتلكه من عناصر القوة المادية (باومان، 2014). أما عبد الوهاب المسيري فقد فسّر المَشاهد نفسها باستبعاد الرؤية الوجودية والمعرفية الوضعية للغايات الأخروية للوجود؛ فحين وضعت الرؤية المعرفية الوضعية الإنسان في مركز هذا الكون، واستغنت بالإنسان عن المرجعية المتجاوزة، واكتفت بأن يصبح الإنسان هو مصدر الدلالات الأخلاقية والجمالية والمعرفية؛ تولّد عن الوضعية تلك النزعات المادية التي رفعت شعار الحدائة والتحديث، وجعلت القوة المادية معياراً للمقبول والجائز (المسيري، 1996). وأياً ما كان التفسير الذي سنقبله لهذه المَشاهد، فإنّ الثابت هو أنّ الحدائة قد مارست درجة من نزع الآدمية في مواجهة المختلفين عنها، سواء كان ذلك بالإقصاء، أو التهميش، أو الإبادة، أو غير ذلك. ومن هذا المنطلق، لا يُنظر إلى مفهوم "نزع الآدمية" بوصفه خطأً أخلاقياً عَرَضياً، وإنما يُنظر إليه بوصفه شرطاً بنيوياً مُتجدّراً في منطق الحدائة السياسي والاقتصادي والتقني. وقد اتّخذت الدراسة هذا الإطار المفاهيمي مُركّزاً؛ لتحليل كيف يعاد إنتاج نزع الآدمية في ظلّ أنظمة الذكاء الاصطناعي بوصفها ظاهرة تكنولوجية واجتماعية ذات تأثير عالمي.

الذكاء الاصطناعي ونزع الآدمية

يعمل الذكاء الاصطناعي على محاكاة العمليات التي يقوم بها العقل البشري، مستعيناً في ذلك بالآلات. وتتعدّد هذه العمليات، بحيث تشمل التعلّم، وجمع المعلومات، والتفكير، والتخطيط؛ أيّ تطبيق القواعد للوصول إلى حلّ لمشكلات مُعيّنة أو اتّخاذ قرارات مُحدّدة، وهي تشمل كذلك عمليات المراجعة والتصحيح الذاتي. والثابت أنّ الذكاء الاصطناعي يستطيع -في محاكاته للعقل البشري- التكيّف مع معطيات مُتغيّرة، ووضع التوقّعات والتنبؤات، واستيعاب اللغة والتواصل بها. ويُعدّ التعلّم الآلي حقلاً فرعياً من حقول الذكاء الاصطناعي، وهو يعتمد أساساً على الخوارزميات، وبه تكتسب الآلة القدرة على التعلّم تلقائياً ممّا تجمع من بيانات، وكذلك القدرة على اتّخاذ القرارات بناءً على هذه البيانات من دون الاعتماد على التدخل البشري لتلقّي تعليمات مُحدّدة، ومن دون الحصول على أيّ برمجة. ومن ثمّ، فإنّ الذكاء الاصطناعي لا يملك فقط القدرة على إنجاز

المهام، وإنَّها يستطيع أن يُفكِّر تفكيراً إبداعياً، وأن يعمل على تطوير الأداء في المهام الموكَّلة له بدرجة كبيرة من الاستقلالية عن البشر (Kulkarni, 2024).

إنَّ تجلّيات ظاهرة الذكاء الاصطناعي تتجاوز الحاضر الآني إلى المستقبل، وتتجاوز في أبعادها المادي إلى الثقافي والديني والأخلاقي، وتتجاوز في موضوعها الفردي إلى المجتمعي، وتتجاوز في حدودها الداخلي إلى الخارجي والدولي والعالمي.

ويؤمّن تيار مُتفائل من الأدبيات المعاصرة بأنَّ الذكاء الاصطناعي يستطيع حقاً تحسين جودة الحياة، وأنَّ حياة الجميع يُمكن أن تصبح أفضل؛ نظراً إلى استخداماته التي أضحت تُؤثّر في حياة أكثر من نصف سُكّان الكوكب (Janna Anderson, 2018)؛ إذ إنَّها تُوفّر لهم الوقت والمال، وتُقدّم لهم الخدمات بصورة أيسر وأقل تعقيداً. وقد احتفى كثيرون بهذا التقدّم؛ إذ رأوا أنَّ الذكاء الاصطناعي سيُسَهِّل حياة كبار السنّ وذوي الاحتياجات الخاصة، وسيُفضي إلى تحسين الخدمات الصحية والمعاملات البنكية، ويزيد من كفاءة القطاعات المختلفة، مثل: قطاع الصناعة، وقطاع الزراعة، وقطاع الإدارة (Kukarni, 2024)، مُستشيرين خيراً برقائق إيلون ماسك التي يزرعها في عقول بعض المُتطوّعين، فتدمج عالم الإنسان في عالم الحاسوب، ويعدّ أن تحمل علاجاً لأمراض السمّنة والفصام والاكئاب والتوحد. وهم كذلك يُرحّبون بما تتيحه الاختراعات المُماثلة من مضاعفة قدرات البشر الذهنية على اختلاف أشكالها من التواصل والإدراك (Quetteville, 2022).

ولكن، لا يمتلك الجميع هذا القدر من التفاؤل بخصوص إيجابية آثار الذكاء الاصطناعي في حياة البشر؛ إذ تتعالى كثير من الأصوات الناقدة، مُحذّرة من أنَّ هذه الثورة -كسابقتها- مُنتج للحدّاث الغريبة؛ فمنذ اكتشاف الأوروبيون الحدّاثيون قوّة البخار، فقوّة الكهرباء، فقوّة المعلومات والتكنولوجيا، كان التقدّم -كما عرفوه- مُكافئاً لمزيد من تحكّم البشر في الطبيعة، ولو كان ذلك على حسابها، ومزيد من تراكم الثروات لمصلحة الأغني والأقوى، ولو كان ذلك على حساب أصحاب الأرض والمورد والحقّ، ومزيد من الاعتقاد بقدرات العقل البشري التي لا تُحدّها حدود، ولا تُقيدها

قيود، ولو كان ذلك على حساب الدين والقيم الأخلاقية (أبو سمرة، 2023) ونزع الآدمية عن بعض البشر لمصلحة بعضهم الآخر، فما الذي يُشّر بأن تكون للذكاء الاصطناعي غايات أخرى؟

ويفترض هؤلاء أن الذكاء الاصطناعي سيُمكّن الفرد الحدائِي من إحكام السيطرة على محيطه وزيادة التحكم فيه، أو سيُمكّنه - في رأي النقيدين - من الاستمرار في الهيمنة على "الآخر" غير الحدائِي بأدوات جديدة. ومن ثمّ، فلا يُنظر إلى الذكاء الاصطناعي بوصفه آلة تُحلّ محلّ الإنسان فحسب، بل يُعدّ امتداداً لأنظمة تاريخية مُتجذّرة في تهميش بعض البشر ونزع كرامتهم، مُتجسّدة في بنى رقمية وحوارزمية تُهمّس الإنسانية الكاملة لأولئك الذين تُحكّمهم، أو تُصنّفهم، أو تتجاهلهم.

والحقيقة أن الأدبيات المعاصرة تُميّز بين مفهوم "نزع الآدمية" بوصفه هدفاً مُتعمّداً (intentional dehumanization) ومفهوم "نزع الآدمية" بوصفه هدفاً غير مُتعمّد (non-intentional dehumanization)؛ فالأوّل يخدم أغراضاً نفعيةً مصلحيةً ماديةً، كتلك التي طالما خدمتها الفكرة الحدائِيّة، كأن يُوظّف الذكاء الاصطناعي في تحجيم دور فئات اجتماعية أو سياسية بعينها. أمّا الثاني فيعيد إنتاج المظالم الاجتماعية في صورة مُشفّرة من دون قصد، كأن تنحاز برمجة الذكاء الاصطناعي للأغنياء دون الفقراء، في الوقت الذي تُوفّر فيه الدعم الاجتماعي للفقراء، أو تنحاز إلى جماعة ما دون جماعات عرقية مُعيّنة، بالرغم من أن التحيز لم يكن مقصوداً، بل ربّما قُصد عكسه. غير أن مفهوم "نزع الآدمية" غير المُتعمّد يتجاوز هذه الأخطاء غير المقصودة إلى عواقب مُستترة؛ لاعتماد البشر عامة على تقنيات الذكاء الاصطناعي (Guest, 2024).

وبناءً على ذلك، فإنّ الدراسة ستتناول هذه الأشكال المختلفة من نزع الآدمية بقدر من التفصيل، وستناقش جدلية العلاقة بين الذكاء الاصطناعي والخدائَة ونزع الآدمية في قسمين؛ أولهما: الذكاء الاصطناعي بوصفه أداة لإعادة إنتاج منطق الحدائَة، وثانيهما: الذكاء الاصطناعي بوصفه قطيعة مع منطق الحدائَة: نحو نزع الآدمية عن الجميع.

أولاً: الذكاء الاصطناعي بوصفه أداة لإعادة إنتاج منطوق الحداثة

ظهر الذكاء الاصطناعي في عدد من الأدبيات النقدية بوصفه أداة لإعادة إنتاج التحيزات الحداثية المناهضة للشعوب والمجتمعات التي طلّت على هامش المركز الغربي؛ إذ وُظِّفت تقنية الذكاء الاصطناعي في إطار من الهيمنة المعرفية والاقتصادية؛ لضمان استمرار علاقات السيطرة والتبعية داخل بنية النظام العالمي المعاصر. وقد تناولت هذه الأدبيات العديد من الموضوعات، مثل: التحيز المُسَفَّر (algorithmic bias)، ونزع الأدمية المؤسسي، وإعادة تدوير الاستعمار في صورته الرقمية.

وقد شاع في الأدبيات النقدية حديث عن ضرورة تحرير الذكاء الاصطناعي من الاستعمار (Decolonize AI) بوصفه جزءاً من منظومة معرفية إمبريالية تُقْصِي المعارف غير الغربية، وتُهْمِش شعوب الجنوب العالمي (Ayana, 2024). ويرى أتباع هذه الأدبيات أن الذكاء الاصطناعي لا ينفصل عن تاريخ طويل من الاستغلال الكولونيالي للموارد والثروات، الذي صاحبه أيضاً إخضاع وإلغاء للمعرفة الأصلية للشعوب. ومن ثمّ، فإنّ تفكيك البنية الاستعمارية التي تُحْكَم إنتاج الذكاء الاصطناعي اليوم يتطلّب أموراً عديدة، مثل: إعادة إدماج معارف الجنوب، ومراجعة نمط مشاركته في صناعة القرار الدولي، وضمان حقوقه الفكرية والعلمية، وصولاً إلى نماذج أكثر عدالة وإنسانية في تصميم تقنيات الذكاء الاصطناعي واستخداماته.

وفي السياق نفسه، كتب بعض الباحثين عن الاستعمار الرقمي (digital colonialism)، وحذّروا من التكاليف الجديدة على إفريقيا (scramble for Africa) (Coleman, 2019)، مُؤدِّحين كيف تتدافع الشركات على البيانات الإفريقية بحثاً عن مُراكمة الثروات والمكاسب، والسيطرة على حصص الأسواق، لا سيّما في ظلّ ضعف الرقابة على البيانات أو تراجع الحماية المحلية لها. وقد وصف آخرون هذا التكاليف على البيانات الإفريقية وبيانات أكثر الشعوب فقراً في العالم بالاستعمار المعلوماتي (the coloniality of data)، وهو أشبه ما يكون بالممارسات الاستعمارية في أوج الإمبريالية الأوروبية؛ إذ كان المُستعمر حريصاً على جمع بيانات دقيقة عن المُستعمرين لضمان

بقائهم تحت سيطرته، مُبَيَّن كيف أصبح البشر أنفسهم المعلومة التي يبحث عنها صاحب رأس المال ليتلاعب برغبات المُستهلكين، أو يبتكرها صاحب السلطة لِيُسيطر على العقول والمجال العام، أو تُراكمها الدول المُتقدِّمة لضمان التبعية الكاملة من الدول "المُتخلفة". ويضاف إلى ذلك كُله أنَّ الفجوة الحقيقية في الإمكانيات والمُقدَّرات حالت دون حصول الدول الإفريقية على بيانات مُناظرة عن الطرف الآخر (Manjikian, 2010). ولا شكَّ في أنَّ ذلك يرسِّخ علاقات القوَّة غير المُتكافئة في عالم من الذكاء الاصطناعي، يملك فيه بعض الناس مزايا معلومانية لا يملكها غيرهم. ومما يزيد الأمر سوءاً، هيمنة شركات عالمية كبرى على حقل الذكاء الاصطناعي، وحرصها على عرقلة الابتكارات المحلية المُنافسة.

والثابت أنَّ النقاد يرون وجود فجوة آخذة في الاتساع بين مَنْ يملكون الذكاء الاصطناعي ومَنْ يستهلكونه، في ما يُعدُّ امتداداً لفجوة أوجدتها الحدائة من قبل، وما تزال تُحافظ عليها حتَّى اليوم. وبالمثل، فقد أفضت التجربة الاستعمارية الحدائية إلى نشوء هياكل مستدامة من الفقر؛ إذ لم تكن أيَّة دولة من الدول التي حلَّ عليها الاستعمار فقيرة، وإنَّما أصبحت كذلك بعد أن أحكم الاستعمار قبضته عليها، حتَّى إنَّ الدول التي تحرَّرت من نير الاستعمار لم تخرج بعدُ من دائرة الفقر، باستثناء عدد محدود منها، مثل الهند. والحقيقة أنَّ آليات استعمار البيانات تعمل على استمرار هذه الحالة من الفقر واستنزاف الثروات.

وبالرغم من وعي الدول الإفريقية المُتزايد في جنوب الصحراء بوجود هذه البنى ما بعد الاستعمارية (Ayana, 2024)، فإنَّ التفاعل العملي معها ما يزال محدوداً؛ إذ لم تتَّخذ سوى 10٪ من هذه الدول (مثل رواندا) إجراءات فعلية لمواجهةها. وبوجه عام، فإنَّ الدول الإفريقية تلك تعاني نقصاً في الاعتماد على الذات في ما يخصُّ جمع بيانات الذكاء الاصطناعي والإفادة منها، وإجراء البحوث والابتكارات في هذا المجال، وتطوير أنظمة الذكاء الاصطناعي المحلية لديها؛ ما يُؤكِّد أنَّ الفجوة المعرفية والتقنية ما تزال قائمة، وأنَّ الجُهد الأكبر ينصبُّ على تطوير أنظمة حماية البيانات وتنظيمها.

وتتسق هذه القراءة النقدية مع ما طرحته (Kate Crawford) في كتابها "أطلس الذكاء الاصطناعي"؛ إذ ترى أن الذكاء الاصطناعي ليس منظومة تقنية مُحايِدة، وإنما هو شبكة عالمية قائمة على الاستنزاف؛ استنزاف الموارد، ونهب البيانات، واستغلال العمالة المُنخفضة الأجر في تصنيع الرقائق واللوحات الإلكترونية. ولا تقود المبالغة في الاحتفاء بالذكاء الاصطناعي -في تصوُّرها- إلى التجهيل والتقليل من قيمة جهود البشر التي تقف خلفه فحسب، بل تسمح تحديداً بتهميش أدوار فئات بعينها تعاني الاستغلال عالمياً، ويستحوذ النظام العالمي على بياناتها ومواردها وعمالتها، ويختزل جهودها بعدّها مُجرّد وقود لعملية "تعليم الآلة"، وهو ما يُمثّل شكلاً مُتجدداً من نزع الآدمية المعرفية والمادية. وقد رصدت (Crawford) نزعة بعض الدول والشركات إلى إحكام قبضتها على حركة البشر واتصالاتهم، بل على فروع العِلْم المختلفة "ليصبح الذكاء الاصطناعي -بحسب قول أحد العلماء- على المدى البعيد هو العِلْم". ولهذا وصفت (Crawford) الممارسات في مجال الذكاء الاصطناعي بأنها ممارسات سياسية إمبراطورية ذات نزعات استعمارية نحو مركز السلطة والقوّة (Crawford, 2021).

وهنا يتبدّى اختلاف الغايات؛ فمهما تعدّدت التوظيفات الحميدة للذكاء الاصطناعي، فإنّ الغاية منه تظلّ هي الأساس في الحكم عليه، والفارق كبير بين أن يُطوّر الذكاء الاصطناعي لخدمة البشرية وعلاج مشكلاتها، وأن يكون أداة لإخضاع البشر وفرض السيطرة عليهم.

وتزداد الإشكالية حِدّة عند تحليل العلاقة بين الذكاء الاصطناعي واستخداماته في الحروب، حيث يتجلّى الشكل الأكثر تطرّفاً من التحيز والاستعلاء. فمن جهة، تُستخدَم الروبوتات والمُسيّرات لتقليل الخسائر البشرية في صفوف الطرف الأقوى، ومن جهة أُخرى، تُنفَّذ هذه الروبوتات والمُسيّرات هجمات مُدمّرة من دون تمييز بين المدني والعسكري، فيختزل الإنسان إلى رقم، وتتحمّط قواعد القانون الإنساني الدولي على عتبة ما يُسمّى الحرب الذكية التي تنزع غطاء الحماية عن الطرف الأضعف (American Red Cross, 2011). وترسّخ في ظلّ هذه العلاقة غير المُتكافئة فكرة أن حياة بعض البشر أهمُّ وأثمن من حياة بعضهم الآخر.

ومن المُنتَلَق نفسه، دحض النقديون الفرضية القائلة بأنَّ الخوارزميات هي السبيل إلى عالم أكثر حياداً وموضوعيةً وتعبيراً عن الجميع؛ لِمَا تسعى إليه من جعل كلِّ البشر سواسية على نحوٍ قد يتدارك بعض أخطاء الحدائة وتحيُّزاتها المُناهضة لبعض البشر. وترى الأدبيات النقدية أنَّ العدالة الخوارزمية هي غاية لا يُمكن تحقيقها بمُجرد الحرص على إدخال بيانات تبدو ظاهرياً مُحايِدة، مُؤكِّدة أنَّ البيانات التي يُغذَّى بها النظام تحمل في طياتها تحيُّزات الواقع الاجتماعي نفسه (Marzsalek-Kotzur, 2020, P.272). ومن ثمَّ، فإذا كان الواقع الاجتماعي يتحيَّز تحيُّزاً هيكليةً لغير مصلحة الأقر والأضعف، ويتحامل على غير الغربي، فإنَّ هذه التحيُّزات ستنتقل -بالضرورة- مُشَفَّرةً إلى عالم الخوارزميات، وهو ما عبَّر عنه أحد الباحثين بقوله: "إذا أدخلت بيانات عنصرية، فلا تتوقَّع سوى الحصول على مُخرجات عنصرية" (J. Corey Williams, 2020).

ولا يستثنى من هذا إذا كان الذكاء الاصطناعي يختار المُرشَّح الأفضل للوظيفة، أو يُحدِّد المُواطن الأكثر قابلية لارتكاب عمل إرهابي. ولا شكَّ في أنَّ هذه الشفرات الخوارزمية "المُتحيِّزة" تُؤثِّر في كلِّ القطاعات التي تَمَسُّ حياة البشر اليومية؛ من: تعليم، وصحة، ومواصلات، وعدالة أمام القانون. وقد أضافت (Bender) إلى هذا كلَّه تحيُّزات رصدتها في هيمنة مُحيِّلة الرجل الأبيض على الذكاء الاصطناعي، وهي التي تتجلَّى في أمور قبيل اللغة التي يستخدمها، أو الهيئة التي تُصوِّر بها الروبوتات (Bender, 2024).

ثانياً: الذكاء الاصطناعي بوصفه قطيعة مع منطق الحدائة: نحو نزع الادمية عن الجميع

بالرغم من كلِّ المخاوف والمحاذير التي تثيرها الأدبيات النقدية، وتتعلَّق بتوظيف الذكاء الاصطناعي واستخدامه أداةً جديدةً لإعادة إنتاج علاقات هيراركية بين البشر، فإنَّ أعداداً مُتزايدةً من الأدبيات النقدية تلفت النظر إلى أنَّ الذكاء الاصطناعي، لا يُمثِّل خطراً على شعوب العالم النامي وحدها، وأنَّ خطره قد يطال الإنسان نفسه في كلِّ مكان.

وقد رصد أنصار هذه الأدبيات بقلق بالغ كيف أضحي الذكاء الاصطناعي مُنافساً للإنسان، يُراقبه على مدار الساعة، ويحتفظ بأدق تفاصيل حياته اليومية وخصوصياته، ويستحوذ على فرص العمل والإبداع الفكري، ويُطوّر ذاته، ويتخذ القرارات، ويُعامل البشر بواسطة صناديق سوداء (black boxes) لا يُدرك البشر حقيقة ما هي مُبرمجة لفعله، ولا طبيعة التحيزات التي تحملها هذه البرمجة في ظل غياب الضمانات وانعدام القواعد الأخلاقية لِمَا يُمكن استغلال البيانات لأجله (Marzsalek-Kotzur, 2020)، ويتعامل مع البشر بوصفهم مجموعة من الأرقام والمعطيات القابلة للقياس والإحصاء الرياضي، ويُعدّهم مادة بلا روح ولا مشاعر ولا دوافع في ساحة هي غالباً منزوعة القِيم، وخالية من الاعتبارات الأخلاقية كسابقتها الحداثية. وسنعرض في المبحثين الآتيين لهذه المسائل بشيء من التفصيل:

1. الفاعلية البشرية وسلطات الذكاء الاصطناعي: بين التحكم والمراقبة

ترى (Marzsalek-Kotzur) أنّ التطوّرات التكنولوجية أسرع بكثير من "قدرة البشر على السيطرة عليها، أو حتّى استخدامها" (Marzsalek-Kotzur, 2020). ونظراً إلى هذا التطوّر الهائل في المُقدّرات؛ فقد أصبحت الخوارزميات "شركاء اجتماعيين غير مرئيين في الفضاء البشري"، بل إنّها تنبؤاً حقيقةً موقع السلطة في كثير من هيراركيات القوّة الاجتماعية (Guest, n.d). وهذا مثال بسيط على ذلك تُبيّنه عمليات البحث في مُحركات البحث، مثل جوجل؛ إذ تُمارس هذه المُحرّكات عملية من الملاءمة الشخصية (personalization) للمعلومات، الأصل فيها أنّها تُسهّل عملية البحث، وتُقلّل من الوصول إلى البيانات غير المفيدة، لكنّها تحمل في ثناياها مخاطر عدّة، منها ما يُسمّى الانحياز التأكيدي (confirmation bias)؛ إذ تصبح كلُّ معلومة جديدة مُجرّد تأكيد لنفس القناعات أو الخلاصات النظرية التي استقرّ عليها الباحث. وفي بعض الأحيان، تؤدّي عمليات البحث المُوجّهة إلى نشوء عوالم مُنفصلة من الحقائق، يعيشها الأفراد كما يعيشها الباحثون، وقد ساءها بعضهم الجُزُر المُنعزلة من الحقيقة (Lee, 2022)، وأكّد آخرون أنّ هذه العوالم المُنفصلة ليست -بالضرورة- جميعها عوالم حقيقية (Manjikian, 2010). فبعض هذه العوالم تتمُّ صناعتها

صُنِعاً لإحداث حالة من التضليل الجماعي للرأي العام، أو تدعيم الأنظمة السلطوية والأنظمة الشعبوية، أو للترويج لشائعات ونظريات مؤامرة عن طريق فيديوهات ومقاطع صوتية مُفبركة (Marzsalek-Kotzur, 2020). ومن ثمَّ، فإنَّ نتائج البحث لا تكون أبداً محايدة، وإن لم تأتِ مُحمَّلة بتحيُّزات سياسية أو تحيُّزات اجتماعية، فإنَّها تأتي كثيراً مُحمَّلة بتحيُّزات رأسمالية؛ إذ تدفع كثير من الجهات والشركات مبالغ طائلة غالباً لقاء ظهورها على رأس نتائج البحث. وهذا ما أكَّده الكاتبة صفية نوبل حين تصدَّرت المواقع الإباحية نتائج بحثها الذي حمل عنوان: "فتيات سوداوات"، بالرغم من أنَّ بحثها كان -في الأصل- عن الإسهامات العلمية للمرأة ذات البشرة السوداء (Noble, 2018).

وفي سياق متصل، فإنَّ العقول البشرية تعجز عن استيعاب الكَمِّ الهائل من المعلومات المُتوافرة في مختلف المواقع الإلكترونية، فيختار لها الذكاء الاصطناعي ما تعرفه، ويستبعد ما يعتقد أنَّها لا تحتاج إلى معرفته، كأنَّه يعيد تعريف حدود الفاعلية (agency) البشرية. إذن، فللذكاء الاصطناعي سلطات وصلاحيات لا محدودة في مواجهة البشر؛ كلُّ البشر. واللافت أنَّ نصيب الفرد من تدخُّلات الذكاء الاصطناعي في اختياراته ونتائج بحثه وكشف خصوصياته في الدول الغنية المُتقدِّمة لا يختلف عنه كثيراً في الدول الفقيرة النامية.

وبوجه عام، يتدخَّل الذكاء الاصطناعي في مختلف مجالات الحياة، بما في ذلك المجال الطبي الذي يشمل تشخيص الأمراض، واقتراح بروتوكولات العلاج، وإعداد بحوث التكنولوجيا الحيوية، وإجراء العمليات الجراحية. وكذلك مجال التمويل والبنوك الذي يشمل الكشف عن عمليات الاحتيال وتقدير المخاطر وخدمات العملاء، ومجال التجارة الذي يشمل متابعة المخازن وتقديم العون للزبائن، ومجال النقل الذي يشمل تحسين عملية تنظيم المرور والإشارات، وضمان توفير وسائل النقل الكافية لاستيعاب الاحتياجات المُتغيِّرة أو الاحتياجات الطارئة، ومجال التصنيع على اختلاف مراحلها، ومجال الأمن السيبراني بجميع أطيافه، ومجال التعليم، ومجال الحروب، وغير ذلك من عشرات المجالات التي يخدمها الذكاء الاصطناعي.

ولكن، إذا كان نصيب الفرد في الدول المتقدمة من تدخلات الذكاء الاصطناعي في حياته أكبر في النواحي التنظيمية، فإن نصيب الفرد في المجتمعات النامية من تدخلات الذكاء الاصطناعي في حياته كبير، لا سيما في عمليات المراقبة والتتبع والتنصت؛ إذ يخدم الذكاء الاصطناعي الأنظمة السلطوية بامتياز. ومهما يكن من أمر، فإن البشر في كل مكان يخضعون لمراقبة (surveillance) في مختلف مناحي الحياة على نحوٍ لم يعهدوه من قبل. وهذه الحالة الدائمة من المراقبة تتيح توجيه الرأي العام، وقمع رموز المعارضة، والتلاعب بنتائج الانتخابات، وتأييب المجتمعات والأفراد، وتعميق الاستقطابات والانتماءات، وغير ذلك من الاستخدامات الكثيرة التي لم تُعد حكرًا على الأنظمة الاستبدادية وحدها (Patrick Maillé, 2021).

وقد أشار (Zygmunt Bauman) في أحد كتبه إلى حدوث تحولٍ لافت في نهج المراقبة اليوم؛ فبعد أن كانت أنظمة المراقبة تتسم بالطابع التقليدي الثابت والمركزي الصُّلب كما في السجون والمؤسسات، أصبحت هذه الأنظمة "سائلة"، وأخذ كثير من الأشخاص يشاركون فيها طوعاً، بما ينشرونه في مواقع التواصل الاجتماعي. ويعتمد هذا النوع من المراقبة على الخوارزميات والبيانات الضخمة (Big Data)؛ فعن طريقها يُمكن مراقبة الأفراد بدلاً من التجسس المباشر عليهم، وذلك بتتبع أنماط السلوك والمشتريات والاتصالات، وحتى الموقع الجغرافي. أما الهدف في هذه الحالة هو التنبؤ بالسلوك وتنميته لأغراض اقتصادية وأغراض سياسية وغير ذلك، في حين تتولّى عملية الرقابة شبكةً لامركزيةً متعددة الأطراف: شركات التكنولوجيا، والحكومات، والمستخدمون أنفسهم (Lyon, 2013). وربما كانت الصين مثلاً صارخاً على المراقبة والتجسس وانتهاك الخصوصية؛ إذ إنها تمتلك مواقع التواصل الاجتماعي ومحركات البحث الخاصة بها، وهو ما يتيح لها مراقبة حركة مواطنيها بشكل شبه كامل. وكان (Martin Griffiths) قد نقد النموذج الرقابي الصيني، لكنّه حذر -في الوقت نفسه- من أن قدرة شركات الإنترنت في العالم الغربي على مراقبة تحركات المواطنين لا تقل عن قدرة الحكومة الصينية في هذا المجال، وإن اختلفت القيود على كلٍّ منهما، ولو بشكل مؤقت (Griffiths, 2019).

والشيء نفسه ينطبق على المواقع الإلكترونية الجديدة التي تُطَلِّقها قوى المقاومة أو المعارضة حول العالم، والتي يُنظر إليها بوصفها منابر حُرَّة فعَّالة يتيحها الفضاء السيبراني؛ إذ إنَّها محكومة دائماً بخوارزميات الذكاء الاصطناعي (Laura Robinson, 2020). فقد يُدافع الناشطون عن حقوق الحيوان بحُرِّيَّة، وقد يُطالب آخرون بحقوق المثلية الجنسية بحُرِّيَّة، ولكنَّ أن ينادي غيرهم بنشر الوعي والحقيقة عن حجم القمِّع والانتهاكات، فتلك مسألة تصطدم بعراقيل الخوارزميات، سواء أكانت خارجية أم داخلية (Khoury-Machool, 2010).

وفي السياق نفسه من الحديث عن تأثير الذكاء الاصطناعي في الفاعلية البشرية، حدَّر بعض الباحثين من أنَّ الذكاء الاصطناعي قد يقود تدريجياً إلى فقدان البشر كثيراً من المهارات الحياتية، وتراجع قدراتهم على توظيف المُقدَّرات الذهنية (deskilling) حين يتولَّى الذكاء الاصطناعي - نيابة عنهم - أداء مهام كانت تتطلب مجهوداً ذهنياً أو مهارات بدنية خاصة. ورُبَّما للسبب نفسه ألمحت دراسات عديدة إلى أنَّ الذكاء الاصطناعي سيحتفظ - بحُكم تفوُّق قدراته - بأعمال "أصحاب الياقات البيضاء"، فيشارك في الأعمال المكتبية والأعمال الإدارية، في حين لا يبقى للبشر سوى "العمل في التراب"، بمعنى الوظائف الأدنى التي لا تحتاج إلى كثير من التفكير (Lee, 2022).

وقد حدَّر هؤلاء الباحثون كذلك من تراجع المهارات الاجتماعية في ظلِّ تقلُّص مساحات التواصل الاجتماعي والتفاعل البشري، كما يظهر جلياً اليوم في تجارب التسوُّق الذكي، والتصنيع المُعتمد على الروبوت (Guest, n.d).

2. الذكاء الاصطناعي: التشيُّو ومحو الذاتية

بعد أن كان الإنسان الفرد هو محور الاهتمام الخدائي، أصبح الإنسان مُجرَّد رقم من أرقام يتشابه فيها مع غيره، في ما يُعرَف بظاهرة التشيُّو (objectification)، وهي ظاهرة بدأتها الخدائة حين جرَّدت الإنسان من جميع أبعاده غير المادية، فأصبح مُجرَّد ظاهرة كأَيِّ من الظواهر الطبيعية، بعدما انتزعت منه القدسية لِمَا انقطعت علاقته بالخالق ﷻ الذي خَلَقَهُ مُكرِّماً في أحسن تقويم،

ونفخ فيه روحه. وما إن أخذت أنظمة الذكاء الاصطناعي وتقنياته تتوسّع وتمتدّد، حتّى توشّحت ظاهرة تشيؤ الفرد في ثوب جديد، نزع منه الفاعلية (agency) والذاتية (subjectivity). وقد أخذت ملامح هذه الظاهرة تزداد وضوحاً بعد تحوّل الفرد إلى كائن افتراضي يعيش في عالمٍ مُوازٍ لعالمه الاجتماعي، مُدعناً لوطأة الذكاء الاصطناعي وأفاعيله. ففي العالم الافتراضي، يتحوّل الفرد إلى مُجرّد مجموعة من البيانات بلا تفرّد أو خصوصية؛ مُجرّد مجموعة من البيانات، يتمّ تحليلها ثمّ اتّخاذ قرارات بخصوصها. واللافت أنّ الخوارزميات لا تُدرِك أبعاد الوجود البشري غير المادية بصورة كاملة؛ إذ يُمكنها على سبيل المثال تقييم سرعة إنجاز العامل لعمله، لكنّها لا تستطيع أن تقيس درجة اجتهاد العامل أو مدى إخلاصه في العمل، أو تستطيع التقاط "المحتوى العنيف" لمقطع مُصوّر، فتُسارع إلى حجبه، لكنّها تعجز عن تمييز العدوان من القضية العادلة (Nazal, 2020).

وفي السياق نفسه، يثور السؤال: إلى أيّ مدى يُمكن للفرد أن يحتفظ بذاتيته الأصلية، في حين تقترح له الخوارزميات ما يُحِبُّ أن يُشاهد، وتختار له ما يُحِبُّ أن يشتري، وتبحث له عمّن يُحِبُّ أن يُصاحب؟ (Sinkovec, 2021).

وفي سياق مُوازٍ، لاحظت (Bender) وجود مغالطات عديدة في المنطق القائل بتشابه الذكاء الاصطناعي مع الذكاء البشري ابتداءً؛ إذ يفتر الأوّل إلى الحدّس والمشاعر وما شابه، وكلّها عناصر غير مادية بالنسبة إلى الذكاء، لكنّها مُكوّنات أصيلة له، وليست فرعية البتة. وترى (Bender) أنّ تشبيه الذكاء الاصطناعي بالذكاء البشري إنّما هو مغالطة كبيرة تنتقص من قيمة آدمية البشر، وتنتزعها انتزاعاً؛ إذ إنّ القول بأنّ الذكاء الاصطناعي يُمكنه صياغة عبارات مفهومة لا يعني - بالضرورة- أنّه قادر على "فهم" اللغة، وقد شبهت (Bender) ذلك بكلام البيغاوات العشوائي (stochastic parrots). وبالمثل، فإنّ تمكّن الذكاء الاصطناعي من توليد نصّ مكتوب (synthetic text generation) لا يعني - بالضرورة- أنّه قادر على "التأليف" (Bender, 2024).

تنقد (Bender) هذا الفصل الاصطناعي بين الجوانب المادية والجوانب غير المادية للوجود الإنساني بشكل عام، مؤكدةً وجود تحيزات جليّة في تطبيقات الذكاء الاصطناعي التي تعتمد على تعرّف ملامح الوجه، وتربط ذلك بالسلوك الإجرامي، أو التوجّهات الجنسية، أو الأحقية في التعيين. فبالرغم من الترويج لهذه التطبيقات بأنّها محايدة، وذات معايير موضوعية، فإنّها موعلة في التحيز، وحسبنا أنّها تُصنّف البشر بحسب ملاحظهم إلى فئات أو مجموعات عرقية أو ما شابه، بحجّة تعريف الهويّات، وتمييز الظاهر من الباطن. وبالمثل، فقد انتقدت (Bender) الإغفال المتعمّد في الذكاء الاصطناعي لأثر الثقافات والعلاقات الاجتماعية في فهم البشر وتعريفهم لأنفسهم؛ فللبشر -بالضرورة- موقع معرفي وجندري وتاريخي، وهي مواقع تُؤثّر في استيعابهم للواقع؛ إذ لا يوجد استيعاب للواقع من دون هذه المعطيات. ومن ثمّ، فإنّ ادّعاء قدرة الذكاء الاصطناعي على استيعاب الواقع من دون هذه المعطيات يحمل -في مضمونه- "تأليهاً" للذكاء الاصطناعي، فيصبح الذكاء الاصطناعي بذلك أقرب الشبه إلى ما يُسمّى النظرة الإلهية (God's eye view)، كأنّه هو المرجعية المُحايدة، وما عداه فمناز ومُتأثّر بسياقات اجتماعية وثقافية، علماً بأنّه لا فهم للواقع حقيقةً من دون سياقات اجتماعية وثقافية مؤثّرة في هذا الفهم. كذلك انتقدت (Bender) النزعة التي تميل إلى تغافل دور البشر في تصميم الذكاء الاصطناعي وبرمجته وتقييمه، بما يُفضي إلى المبالغة في تعظيم شأن الذكاء الاصطناعي في مُقابل تهميش دور البشر (Bender, 2024).

ولا يقف تأثير الذكاء الاصطناعي في حياة البشر عند هذا الحدّ؛ فقد أشار النقادون إلى معضلة أنتجتها الخدائة نفسها حين منحت البشر صلاحيات غير محدودة بدعوى أنّ العقل البشري سيُمكن البشر من السيطرة المُطلقة على الكون من حولهم. ولمّا كان الوجود البشري في ظلّ المنظومة الخدائية لا يتجاوز أبعاد الوجود المادي، فقد كان من البدهي أن يحظى صاحب أكثر المُقومات المادية حضوراً بمكانة أعلى. ولهذا، فإنّ تنامي ظاهرة الذكاء الاصطناعي ربّما يُفقد البشر تدريجياً مزيّة أنّهم أرقى كائنات الكوكب؛ فالإنسان الذي طالما مثل مركز الكون بامتلاكه مزيّة العقل البشري القادر على السيطرة المُطلقة على الطبيعة من حوله -وفق الوعد الخدائي- جاء من يفوقه ذكاءً بمراحل عدّة، بل من يمتلك ذكاءً فائقاً (super intelligence). ففي اللحظة التي يتصرّف فيها

الذكاء الاصطناعي وفق إرادته الخاصة، فإنه يكون حقاً أرقى كائنات الكوكب بحسب منظومة القيم المادية التي تقبل بطبيعتها أن يكون البقاء للأقوى والأذكى والأصلح مادياً.

وكأنّ الذكاء الاصطناعي يُفضي تدريجياً إلى سحب البساط من تحت قدمي الإنسان - بوصفه مركزاً للكون - ليحلّ محله كيان لا نعرف قيوده أو حدوده، وإننا نعرف أنه أقوى من حيث القوة البدنية، وأكثر ذكاء من حيث القوة العقلية، ورُبّما أطول عمراً من البشر بحكم أبدية المعلومات والأرقام (digital immortality). عندئذ يصبح الإنسان امتداداً للأداة التي تحكم على صلاحيته في عالمها بعد أن كانت الأداة هي امتداد الإنسان (Marzsalek-Kotzur, 2020). ولا شك في أن مدّ الخطّ الحدائي على استقامته يعدُّ أمراً خيفاً حقاً.

خاتمة

كشفت هذه الدراسة، عبر تفكيك العلاقة الجدلية بين الحداثة والذكاء الاصطناعي، أن ما يُقدّم اليوم بوصفه إنجازاً تقنياً غير مسبوق ليس بمعزل عن السياقات المعرفية والسياسية التي أنتجته، وإنّما هو امتداد لها أفرزته الحداثة من أنماط استعلائية وإقصائية نزعت فيها الآدمية من "الآخر" المختلف، وها هي تُنزع اليوم - بدرجات متفاوتة - من الجميع. فبينما كان مشروع الحداثة يستبطن مركزية العقل البشري الغربي، ويُقصي من لا يندرج تحت معاييرها، أخذ الذكاء الاصطناعي يحمل هذه النزعة إلى ذروتها، سواء أكان ذلك بأدوات السيطرة الجديدة أم بما توجده أنظمتها من عالم مُشفر منزوع القيم والخصوصية والفاعلية الإنسانية.

وبناءً على الإطار السوسولوجي الدولي النقدي الذي اعتمده الدراسة، فقد تبين أن الذكاء الاصطناعي يعيد إنتاج الكثير من موروث الحداثة، بدءاً بالتشويؤ، ومروراً بالتحيز المُشفر، وانتهاءً بالاستعمار الرقمي؛ إذ تُحتزل الكينونة البشرية إلى بيانات قابلة للتصنيف والبيع والتلاعب، وتعاد صياغة اللامساواة العالمية في صورة رقمية مُغلّفة بالحياد. كذلك تبين أن نزع الآدمية لم يعد مقصوراً

فقط على "الأخر" المُستضعَف، وإنَّما طال حتَّى "الذات" التي لطالما عدَّت نفسها معياراً للإنسانية حين جُردَ البشر من فاعليتهم، ومُحيت من الوجود ذاتيتهم، بما يكشف حدود المشروع الحدائهي نفسه، ويضعه أمام مفارقاته الجوهرية.

وقد كتب النقادون عن الأخلاق والضمير الإنساني، ورأى بعضهم أنَّ المخرج الوحيد من الهلاك والإهلاك الاصطناعي الذي ينتظر البشر هو إحداث تغيير جذري في منظومة القيم التي تُحرِّك الواقع، وترسم خطَّ التقدُّم البشري القادم، مُمثلاً في تطوير أنظمة رقابية على استخدامات الذكاء الاصطناعي، واعتماد أدواته بعد إخضاعها لتدقيق أخلاقي وإنساني فعَّال، وتطوير قدرات البشر، بحيث تصبح أكثر قدرة على مواكبة التطوُّر الحادث، وملاحقة "سباق" الذكاء الاصطناعي، والاستفادة منه (تمكين البشر في مُقابل تمكين الآلة)، وتوعية البشر بأبعاد مخاطر الآلة، والاجتهاد لتصبح خدمة الإنسانية هي الأولوية، والسعي لتسخير تقنيات الذكاء الاصطناعي في خدمة البشر والوفاء باحتياجاتهم؛ بأنَّ يصبحوا هم مدار هذه التقنيات (people centered)، وصولاً إلى حياة أفضل، وأداء للعمل على نحوٍ مُثَقَّن، وتعويض فرص العمل عن طريق التدريب الفعَّال والتعليم المُتقدِّم، بما يصون للإنسان كرامته، ويُحقِّق له ذاته، بصرف النظر عن العرق والجنس واللون والانتاء.

وبينا يتحدَّث بعض النقاد عن الحاجة إلى وجود ذكاء أخلاقي (ethical intelligence) (Sinkovec, 2021)، لا مُجرَّد ذكاء اصطناعي، فإنَّ بعضهم الآخر يتحدَّث عن وجوب إشراك الجنوب العالمي بوصفه وسيلة أساسية لتوسيع نطاق منافع الذكاء الاصطناعي، بحيث يشمل البشر جميعاً، وإعادة توزيع الموارد والفرص، بما في ذلك توفير البحوث والمعلومات الخاصة بالذكاء الاصطناعي، وحماية حقوق الملكية الفكرية للجنوب العالمي في هذا المجال (Ayana, 2024).

وعلى صعيد آخر، أثارت بعض الأدبيات النقدية إشكالية المسؤولية، بطرحها السؤال الآتي: على مَنْ تقع مسؤولية إيجاد ذكاء اصطناعي أكثر التزاماً من الناحية الأخلاقية؟ وفي هذا السياق، يرى

(Sinkovec) مثلاً أنّ الغرب على وعي بهذه المعضلة، وأنّ العديد من الكيانات (مثل الاتحاد الأوروبي) قطعت شوطاً في هذا الطريق، الذي رُبِّياً أحرز فيه الاتحاد الأوروبي قصب السبق (Sinkovec, 2021). وبالمُقابل، يرى (Edward Lee) مثلاً أنّ المسألة أكثر تعقيداً من أدوار تنهض بها بعض الدول، مُتسائلاً: هل نُخاطب المُهندسين القائمين على تطوير الذكاء الاصطناعي، أم المُستثمرين في وول ستريت، أم السياسيين الذي يُوظفون الذكاء الاصطناعي في نشر أنصاف الحقائق؟ (Lee, 2022). ولهذا يرى (Lee): أنّ التفكير في الذكاء الاصطناعي، بوصفه مُتتجاً لخطّة حكومية مُنهجة عمودياً من أعلى إلى أسفل، لا يُعبّر تعبيراً دقيقاً عن الواقع السعيّش.

فالواقع هو أنّ المُهندسين ببحوثهم وإسهاماتهم الصغيرة يُمثّلون محرّكات التطوُّر في هذه السلسلة الجديدة من التطوُّر البشري؛ فهم الذين يُطوِّرون الآلات والبرامج والتطبيقات واللغات والشبكات، وبقدْر ما تحظى إنجازاتهم بقبول من المُستهلك، بل بقدْر ما يُسهِم المُستهلكون في توجيهها باحتياجاتهم وقبولهم لها أو رفضهم إيّاها، بقدْر ما تتحدّد ملامح الواقع الجديد. وبذلك يتحمّل الأفراد -على اختلاف مواقعهم وبيئاتهم الثقافية- المسؤولية -وفق هذا المنطق- عن واقعنا الذكي الاصطناعي الجديد، في علاقةٍ سبّاهَا (Lee) التطوُّر التشاركي (coevolution). ومن ثمّ، فإنّ مهمة توعية المُستهلك لا تقل أهمية عن مهمة سنّ القوانين الناظمة لسلوك مُنتج التكنولوجيا ومطوِّرها، حتّى يدرك مُستهلك الذكاء الاصطناعي كيف يُمكن التلاعب بصوته الانتخابي، أو كيف يصبح هو نفسه "السلعة" التي تتبعها منصّات التواصل الاجتماعي لشركات الدعاية والإعلان عند استخدامه هذه المنصّات "المجانية".

وتأسيساً على ذلك، فإنّ مواجهة هذا الواقع تتطلّب إعادة بناء خطاب قيّمي عالمي، يعترف بمحدودية العقل المادي مهها عظمت قدراته، ويعيد الاعتبار إلى الإنسان بوصفه كائناً أخلاقياً ذا كرامة وغاية تتجاوز النفع المادي. ولهذا كلّهُ، فلا بُدّ من إطلاق حوار عالمي حول الأخلاق، تشارك فيه الدول الإسلامية استناداً إلى الرؤية التوحيدية الاستخلافية العمرانية (ملكاوي، 2008)، وتتناول أبرز محاوره كيفية التعامل مع تحديات الواقع الذكي الاصطناعي الجديد؛ إذ تمتلك الرؤية الإسلامية

كثيراً من مَقوّمات المشاركة الجادّة في هذا الحوار، وتمتاز منظومة القِيم الإسلامية بشباتها بالنظر إلى ثبات مصدرها؛ فهي تختلف عن منظومات القِيم التي يصنعها البشر، والتي قد تتأرجح وتتغيّر وفق المصالح والأفهام وموازين القوى؛ إذ تحتكم هذه المنظومة في تفضيلاتها إلى مقاصد الشريعة؛ من: حفظ دين، ونفس، ونسل، وعقل، ومال (الخطيب، 2007). وبذلك يستعيد الإنسان في هذه المنظومة التوحيدية تواضعه وتسليمه بقدراته المحدودة، ويوظّف في نطاقها علومه لخدمة البشر وتحقيق غايات العمران والاستخلاف، في ظلّ منظومة قِيم يقف البشر جميعاً أمامها سواسية؛ إذ لا تتبدّل معاني الخير والعدل والحقيقة بتبدّل قائلها (عبد الفتاح، 2022). كذلك لا يتجرّد "التفكير" في هذه المنظومة -مهما بلغ من الذكاء- من وظيفته الأساسية، وهي التفكّر في خَلْق السماوات والأرض؛ تحقيقاً لغاية العبودية لله تعالى، وتركيزاً للنفس، وقياماً بالعمران وواجبات الاستخلاف على نحو يعيد ضبط بوصلة الذكاء في اتجاه خدمة الإنسان، لا محوه وتهميشه.

وفي الختام، فإنّ الذكاء الاصطناعي -في صيغته الراهنة- ليس سوى مرآة تعكس أزمة الحدائفة نفسها، ولكنّ الإنسان -في هذه المرآة- قد يكتشف أيضاً فرصة للمراجعة الكبرى؛ فيتجاوز الإرث الاستعلائي، ويعيد تعريف التقدّم، ويستعيد إنسانيته من قلب المعادلة الخوارزمية.

المراجع

- باومان، زيجمونت (2014). *الحداثة والهولوكوست*. ترجمة: حجاج أبو جبر ودينا رمضان. القاهرة: دار مدارات للأبحاث والنشر.
- الخطيب، معتز عبد اللطيف (2007). الوظيفة المقاصدية: مشروعيتهَا وغايتها، مجلة إسلامية المعرفة (الفكر الإسلامي المعاصر لاحقاً)، السنة 12، العدد 48، 11-35.
- أبو سمرة، أميرة (2023). المنظور النقدي للعدالة الخوارزمية بين التحيز والرقابة، السياسة الدولية: رؤى استشرافية.
- عبد الفتاح، سيف (2022). "المدخل القيمي: إطار لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام"، في موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، تحرير نادية مصطفى، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث ودار السلام.
- المسيري، عبد الوهاب (1996). *فقه التحيز، في: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد*. هرنندن-فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

References

- Abd El-Fattah, S. (2022). *Al-Madkhal al-Qiyamī: Iṭār li-Dirāsāt al-‘Alāqāt al-Dawliyya fī al-Islām* [The normative approach: A framework for the study of international relations in Islam]. In N. Mostafa (Ed.), *The Encyclopedia of International Relations in Islam* (2nd ed.). Cairo: Markaz al-Ḥaḍāra lil-Dirāsāt wa-al-Buḥūth & Dār al-Salām.
- American Red Cross. (2011). *Summary of the Geneva Conventions of 1949 and their Additional Protocols*. Retrieved from: https://www.redcross.org/content/dam/redcross/atg/PDF_s/International_Services/International_Humanitarian_Law/IHL_SummaryGenevaConv.pdf
- Abou Samra, A. (2023). A Critical Perspective on Algorithmic Justice (Ru'yah Naqdiyyah 'an al-'Adālah al-Khawārizmiyyah). *Theoretical Strands: International Politics*.
- Alkhateeb, M. (2007). The Maqasidi Task: Its Legitimacy and Purpose, *Alwatheefah Almaqasedayah: Mashrou'eyatha wa ghayatha*. islamization of Knowledge, 11-35.
- Al-Messiri, A. (1996). *Understanding Bias (Fiqh al-Taḥayyuz)*. In A. Al-Messiri, *The Problem of Bias: An Epistemological Perspective and an Invitation to Reasoning (Ishkālīyyat al-Taḥayyuz: Ru'yah Ma'rifiyyah wa-Da'wah lil-Ijtihād)* (pp. 3–108). Herndon, VA: International Institute of Islamic Thought.
- Arendt, H. (1951). *The Origins of Totalitarianism*. New York: Harcourt.

- Ayana G. (2024). Decolonizing Global AI Governance: Assessment of the State of Decolonized AI Governance in Sub-Saharan Africa. *Royal Society Open Science*, 1-16.
- Bauman, Z. (2014). *Al-Ḥadāthah wa-al-Holocaust* [Modernity and the Holocaust]. Ḥajjaj Abū Jabr and Dina Ramadan (trans.). Cairo: Madārāt lil-Abhāth wa-al-Nashr.
- Bender, E. (2024). Resisting Dehumanization in the Age of “AI”. *Current Directions in Psychological Science*.
- Coleman, D. (2019). *Digital Colonialism: The 21st Century Scramble for Africa through the Extraction and Control of User Data and the Limitations of Data*.
- Crawford, K. (2021). *Atlas of AI*. New Haven and London: Yale University Press.
- Fanon, F. (2008). *Black Skin, White Masks*. New York: Grove Press.
- Griffiths, M. (2019). *The Great Firewall of China*. Zed Books.
- Grosfoguel, R. (2010). Epistemic Islamophobia and Colonial Social Sciences. *Human Architecture: Journal of the Sociology of Self-Knowledge*, 8(2), 29-38.
- Guest, L. V. (n.d.). Artificial Intelligence: Panacea or Non-Intentional Dehumanization? *Journal of Human Technology Relations*, 1-11.
- Harding, U. N. (2002). *Decentering the Center: Philosophy for a Multicultural, Postcolonial and Feminist World*. Indiana University Press.
- J. Corey Williams, N. A. (2020). Colorblind Algorithms: Racism in the Era of COVID-19. *Journal of the National Medical Association*, 550-552.
- Janna Anderson, L. R. (2018). *Artificial Intelligence and the Future of Humans*. Pew Research Center.
- Khoury-Machool, M. (2010). Cyber Resistance: Palestinian Youth and Emerging Internet Culture. In A. B. Herrera, *Being Young and Muslim: New Cultural Politics in the Global South and Global North*. Oxford: Oxford Scholarship Online.
- Kronfeldner, M. (2021). Editor's Preface. In M. Kronfelder (Ed.), *Routledge Handbook of Dehumanization* (pp. 1-34). Routledge.
- Kulkarni, S. S. (2024). Artificial Intelligence and its Uses in Modern Days. *International Journal of Artificial Intelligence Research and Development*, 48.
- Laura Robinson, J. S. (2020). Digital Inequalities 3.0: Emergent Inequalities in the Information Age. *First Monday: Peer-Reviewed Journal on the Internet*.
- Lee, E. (2022). Are We Losing Control. In E. Lee & H. Werthner (Eds.), *Perspectives on Digital Humanism* (p. 3). Springer.
- Lyon, D. & Zygmunt B. (2013). *Liquid Surveillance: A Conversation*. Polity Press.
- Malkawi, F. (2008). An Islamic Foundational Definition of Values (Al-Ta'sīl al-Islāmī li-Mafhūm al-Qiyām). *Contemporary Islamic Thought*, 6, 6–10.
- Manjikian, M. M. (2010). From Global Village to Virtual Battlespace: The Colonizing of the Internet and the Extension of Realpolitik. *International Studies Quarterly*, 381-401.

- Marzsalek-Kotzur, I. (2020). Cognitive Technologies - Are We in Danger of Humanizing Machines and Dehumanizing Humans? *Management Systems in Production Engineering*, 28, 269-275.
- Nazzal, A. (2020, December). YouTube's Violation of Palestinian Digital Rights: What Needs to be Done? *The Palestinian Policy Network*. https://al-shabaka.org/wp-content/uploads/2020/12/Nazzal_PolicyBrief_Eng_Dec2020.pdf
- Netanyahu's Speech at AIPAC. (2018, March 06). *YouTube*. <https://www.youtube.com/watch?v=77GdJHRQC4Q>
- Noble, S. U. (2018). *Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism*. New York: New York University Press.
- Patrick Maillé, G. M. (2021). *Are Search Engines Biased? Detecting and Reducing Bias using Meta Search Engines*. Hal Archives-Ouvertes.
- Quetteville, H. D. (2022, February 04). *The Telegraph*. <https://www.telegraph.co.uk/news/2022/02/04/mind-control-elon-musk-next-move-looking-human-volunteers/>
- Sinkovec, G. J. (2021). Involvement of Artificial Intelligence in Modern Society. *International Journal of Management, Knowledge and Learning*.

Modernity and Artificial Intelligence: An International Sociological Critique of Dehumanization

Amira Abou Samra*

Abstract

Artificial intelligence (AI) represents a pivotal transitional moment in human history, with unprecedented impacts across social, political, and economic domains. This study adopts a critical international sociological approach to analyze the dialectical relationship between modernity, AI, and dehumanization. It asks: Is AI merely an extension of modernist logic through digital tools that reinforce inequalities and patterns of control, or does it pose a radical challenge, threatening human agency and undermining modernist promises of complete human mastery over the world? Findings show that, while AI appears as a continuation of the modernist project, it exposes the fragility of this project: the erosion of human agency now affects not only “the weak, exploitable Other” but also “the Self”, which has long considered itself the benchmark of humanity, revealing paradoxes in modernist logic. The study calls for the reconstruction of a global moral discourse that restores humans as socially and ethically responsible actors.

Keywords: artificial intelligence, modernity, dehumanization, international sociological approach.

* Amira Abou Samra holds a PhD in Political Science from Cairo University (2014). She is an Assistant Professor of International Relations in the Department of Political Science at the Faculty of Economics and Political Science, Cairo University. Her email address is amiraabousamra@feps.edu.eg, <https://orcid.org/0000-0003-4509-6256>

Received: 16/11/2024. **Accepted for publication:** 25/5/2025.

To cite this article: Abou Samra, A. (2026). "Modernity and Artificial Intelligence: An International Sociological Critique of Dehumanization". *Contemporary Islamic Thought Journal* (formerly *Islamiyyat al-Ma'rifah*), 32(111), 175–199. <https://doi.org/10.35632/citj.v3i1111.17269>

© 2026 International Institute of Islamic Thought. All rights reserved.